



# النبي بين العقل والعاطفة دراسة تاريخية تحليلية

محمد علي الديباجي\*

علي هاشم\*\*

## الخلاصة

يبحث المقال في نظرية الفعل الفردية في التنبؤ عند الإنسان، فهل هناك مدخلية لنفس النبي في التنبؤ (العقل)، أم أن العملية برمتها اختيار واصطفاء (العاطفة)، ولا يخفى أن الغور تاريخياً في الموضوع يؤسس لنا مدخلاً ثيولوجياً وميثولوجياً مهماً ترك أثره الكبير على فلاسفة اللاهوت من اليهود والمسلمين<sup>1</sup>، خصوصاً في الاتجاه الفلسفي عبر فكرة ترقى النبي بمخيلته والاتصال بالعقل الفعّال وعالم العقول العالية؛ لتتشابك الأبعاد: النفسية والمعرفية والميتافيزيقية، بما يعقد فهم تلك العملية، وبيان صياغتها.

قد تمت دراسة الموضوع بالسّير التاريخي التحليلي لتشكيل صورة متكاملة

\* أستاذ مساعد في اختصاص الفلسفة في جامعة طهران، برديس فارابي.

\*\* طالب دكتوراه في فرع فلسفة الدين بجامعة طهران، برديس فارابي.

1- لم يتمّ التعرّض للفكر المسيحيّ لخصوصية تحوّل مفهوم الإله بالإنسان، فإلله في المسيحية بدل عندهم تجسّد وعاش بيننا، وتفصيل ذلك يُبحث في محله.

للنبوة في المُخَيَّل العام للإنسان ليصار بعدها إلى تأطيره بدراسة فعل النبوة في اليهودية والإسلام، مركزين البحث على فعل التنبؤ دون الدخول في تفاصيله، مثل: مسألة الرسول، والرّسالة، والعصمة، وغيرها.

## الكلمات المفتاحية

النبوة، التنبؤ، المُخَيَّل، العقل الفعّال، الوحي، المبادرة.

## مقدمة

تعدّ قضية النبوة والتنبؤ من الموضوعات المهمّة التي اهتمّ بها علماء الكلام والألاهوت بشكل عام، ولا غرابة في ذلك؛ إذ يُعدّ الوحي الأساس المتين الذي يعتمد عليه كلّ دين سماويّ في كلّ المسائل والقواعد الدينيّة، وذلك لأنّ النبيّ ما هو إلاّ بشر منح القدرة على الاتّصال بالله، والتّعبير عن إرادته تعالى بأيّ وسيلة كانت؛ فرؤياه صادقة، وإخباره هو اليقين بعينه: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾<sup>1</sup>، لا يشدّ عن هذا الرأي لا من الفلاسفة ولا المُتصوّفة ولا المشرّعة، فلم ينكر الفلاسفة النبوة، أو الوحي طريقاً للمعرفة؛ بل أثبتوها، وجعلوا النبوة ضرورة عقليّة وواجبة؛ لأنّ فيها صلاح حال النّاس، ويقتضيها العدل الرّبانيّ، وقد تركوا لنا في تراثهم الفلسفيّ مناقشات، خصوصاً لجهة تشابك الأبعاد النفسيّة والمعرفيّة والميتافيزيقيّة فيها، وهو من المباحث التي حلم بها الإنسان وبحثها منذ أن أدرك حقيقة ذاته في هذا الكون، وطبيعة اجتماعه ومستلزماته.

قد تعدّدت المشارب والاتّجاهات، فمنهم من ذهب بالنبيّ لمرتبة لا يرقاها سواه لا فيلسوف ولا غيره في تلقّي الحكمة من الله<sup>2</sup>، ومنهم من ساواه بالفيلسوف؛ بل أقلّ مستنداً إلى نظريّة العقل الفعّال والقدرة المعرفيّة لهذا الاتّصال<sup>3</sup>، كما أنّ هناك من ساوى بينهما<sup>4</sup>؛ ما انعكس بشكل واضح على تفسيرهم للنبوة حسب تفسيرهم للعقل والنفس، سواء على مذهب الفيض والصدور في الخلق وفق

1- الآية 4، التّجم/53.

2- كالكندي وابن سليمان المنطقي.

3- كالفارابي وابن ميمون.

4- كإخوان الصفا.

المدرسة المثالية عند أفلوطين في الأفلوطينية الحديثة، أم على مذهب الخلق في مفهوم واجب الوجود لدى المشائية الأرسطية، أم على مستوى الاكتفاء بظاهر النص الديني، أم تأويله لبيان مصداقه الميثولوجي الخارجي على السواء. قد احتدم الصراع الفكري طيلة القرون الهجرية الستة الأولى، فأوغل الفارابي وابن سينا في تفسير النبوة تفسيراً عقلياً صرفاً؛ ما أغرى الباحثين القول بنظرية كسب النبوة بالجهد والترييض، وبقوة المخيلة التي يفيض عليها العقل الفعال، وتبعهما في ذلك بعض الفلاسفة من غير المسلمين كابن ميمون، وهذا ما خالف إجماع علماء الكلام من أن النبوة اصطفاء من الله للنبي دون كسب منه، وعده خروجاً عن التحديد القرآني للنبوة، هذا وقد حازت نظرية الفلاسفة على اهتمام العلماء اللاهوتيين والمفكرين في القرون الوسطى على الصعيدين: اليهودي، والمسيحي كموسى بن ميمون الذي أعلن صراحة تلمذته للفارابي، وابن سينا<sup>1</sup>.

### النبي والنبوة لغة

لا يحسن في الدراسات التخصصية التوغل في الجذر اللغوي للمفردات، خصوصاً تلك التي تبدو جلية وواضحة، لكن خصوصية مفردة النبي في اللغة العربية وطبيعة بنيتها تلزم التعرض لها تفصيلاً لما لها من مدخلة في تواضع العلماء واصطلاحهم.

تتفق كل المعاجم اللغوية أن للفظ النبي احتمالين من جهة الاشتقاق:

1. أن يكون من «النبا» بالهمز وهو الخبر، فيكون بمعنى المنبئ؛ أي المخبر عن الله تعالى، وقد سُمي به لإنبائه عن الله تعالى، فهو حينئذٍ فعيل بمعنى فاعل مهموز اللام، والصواب حينئذٍ أن يقال فعيل بمعنى مفعول مثل نذير بمعنى منذر<sup>2</sup>، كما يصح فيه أيضاً معنى المفعول؛ لأن الله تعالى هو الذي ينبئه<sup>3</sup>.

ولفظ «النبي» في اللغة مهموز، ويحتمل أن تكون همزته قد سقطت، أو أنها أبدلت بياء (الشرقاوي، نفسه)، أو أنهم تركوا همزه كالذارية

1- وكأببر لجراند الذي كثيراً ما ردد اسم الفارابي في مؤلفاته اللاتينية.

2- ابن منظور، لسان العرب، ج1، مادة نبأ 156.

3- الشرقاوي، الأنبياء في القرآن، 1982، ص 9.

والخافية<sup>1</sup>، أو أن يخفف ويدغم؛ إذ إن الإدغام معروف ومشهور عند العرب.

وجمع لفظ «النبي» نباء، وقال الجوهري: يجمع «أنبياء»؛ لأن الهمزة لما أبدل وألزم الإبدال جُمِعَ جمع ما أصل لامة حرف علة كـ «عدو» جمعه «أعداء»<sup>2</sup>.

2. أم يكون مشتقاً من النبوة أو النبوة، وهو الارتفاع عن الأرض، يقال: تنبى فلان إذا ارتفع وعلا، وهو فعيل من النبوة بمعنى مفعول، والجمع أنبياء، وحينئذ يكون معناه الذي يشرف على سائر الخلائق، والرفيع المنزلة عند الله، وإما أنه من النبي، وهو الطريق، فالنبي هو وسيلة إلى الله تعالى<sup>3</sup>.

### النبي والنبوة اصطلاحاً

1. النبوة عند الحكماء<sup>4</sup> عبارة عن قوة قدسية يتم بها إدراك المعلومات من غير وساطة من تعليم أو تعلم، وهي ما يعبر عنه بالعقل القدسي، والمراد بالعقل القدسي هو القوة النظرية التي من شأنها تحصيل المدركات من غير تعليم وتعلم كحال النبي، كما أنها عند المتكلمين عبارة عن قول الله إنك رسولي<sup>5</sup>.

فالنبي هو المُنْبِيُّ عن الله ومنبأ منه، فإن أمره بتبليغه كان رسولاً، وليس كل نبي رسولاً، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾<sup>6</sup>.

1- الرازي، المباحث المشرقية، 1966، ص 642.

2- ابن منظور، مصدر سابق.

3- الزمخشري، أساس البلاغة، 1953م، ص 442.

4- لا يخفى أن المراد من مصطلح «الحكماء» هو المعنى الأعم.

5- كقوله تعالى: ﴿... أَنْ يَمُوتَ إِذَنْ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. الآية 30، القصص/28.

6- وقوله تعالى: {اقرأ باسم ربك الذي خلق}. الآية 1، العلق/96. الآمدي، المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين، 1986: 386.

6- الأحزاب:40.

2. النبوة هي صفة قائمة بالذفس ومنصب مجعول من قبل الله للنبى بوصفها مخبراً ومبلغاً عن الله وسفيراً إلى خلقه، «فالنبي جالس في الحد المشترك بين عالم المعقول وعالم المحسوس، وهو تارة مع الحق بالحب له، وتارة مع الخلق بالرحمة والشفقة لهم»<sup>1</sup>.

3. النبوة هي مرتبة الإنسان البالغ حد الكمال من جهة مبادئ إدراكاته الثلاثة: قوة الإحساس، وقوة التخيل، وقوة التعقل. فمن اتفق فيه مرتبة الجمعية في كمال تلك القوى الثلاث فله رتبة رياسة الخلق، فيكون رسولاً من الله يوحى إليه ومؤيداً بالمعجزات منصوراً على الأعداء<sup>2</sup>. وجوهر النبوة هو مجمع الأنوار العقلية والنفسية والحسية، ومجمع مظاهر الأسماء الإلهية، وكلمات الله التامة<sup>3</sup>.

4. يصطلح أهل الكتاب النبوة على الملهم الذي يخبر بشيء من أمور الغيب المستقبلية، ولهذا، قيل: إن معنى أصل مادته هو المتكلم بصوت جهوري مطلقاً، أو في الأمور التشريعية<sup>4</sup>. ويسمى العبرانيون النبي (نبيا)؛ أي خطيباً ومفسراً<sup>5</sup>، و(النبيم) جمع (نابي)، أو (نبي) بالعبرية<sup>6</sup>.

وقد تباين موقف المتكلمين من هذين الاحتمالين:

1. فقد أجمع الأشاعرة على تأكيد اشتقاق لفظ النبي من النبأ بمعنى الخبر، كما أن بعضهم قد غالى حين أطلق على «النبوة» اسم «النبوءة»<sup>7</sup>، ككون النبي هو المتنبئ من النبأ<sup>8</sup>.

1- صدر المتألهين، الشواهد الربوبية 2007م، ص 255.

2- المصدر نفسه، ص 256.

3- المصدر نفسه، ص 244.

4- رضا، الوحي المحمدي، 1988، 10.

5- اسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، 1971م، ص 123.

6- القمني، إسرائيل، التوراة، التاريخ، التضليل، 2014م، ص 70.

7- الجويني، الإرشاد، 1985م: 302.

8- طبعاً دون أن يعني هذا أنهم تخلّوا عن المعنى الثاني أو منعوه، لا بل دلّ الأمر أنهم تبّنوا الأمر الأول؛ لأنّه يتّسق ورؤيتهم العامة الشاملة للنبوة، خصوصاً ما إذا ←

2. ولم يوافق غالبية المعتزلة على اشتقاق لفظ النبي من النبأ، حيث ذهبوا إلى أن ذلك مشروط برّد لفظ النبي إلى النبأ على شرط همزها، «فإن همزت فهي مأخوذة من الإنباء والإخبار والإعلام»<sup>1</sup>.
- ولما كان النبي قد أنكر الهمز<sup>2</sup> وعلى الرّغم من جوازه لغة انحصر الأمر في دلالة اللفظ على الرفعة فتكون مأخوذة من النبوة أو النبوة.
3. يُعرفه الجرجاني بالقول: النبيّ مَنْ أُوحي إليه بملك، أو ألهم في قلبه، أو نبّه بالرؤيا الصالحة<sup>3</sup>، وفي مجمع البحرين: هو من الإنسان المخبر عن الله بغير وساطة من البشر، أعمّ من أن يكون له شريعة كمحمد، أو ليس له شريعة كيحيى<sup>4</sup>.
4. يُعرفه المُحقّق الطّوسيّ بقوله: النبيّ إنسان مبعوثٌ من قبل الله تعالى إلى عباده ليكلّمهم بأن يعرفهم ما يحتاجون إليه في طاعته وفي الاحتراز عن معصيته<sup>5</sup>، كما يعرفه العلامة الحلّي: النبيّ هو الإنسان المخبر عن الله تعالى بغير وساطة أحد من البشر<sup>6</sup>.
- فبقيد الإنسان يخرج الملك، وبقيد المخبر عن الله يخرج المخبر عن غيره، وبقيد عدم وساطة بشر يخرج الإمام والعالم، فإنّهما يخبران عن الله بوساطة النبي ﷺ.
5. ذهب الفارابي وابن سينا وابن ميمون إلى أنّ النبوة فيض من الله يفيض

← لحظنا ما تبنّته المعتزلة في المقام، فيكون النبي عند الأشاعرة وغيرهم من قال له الله عزّ وجلّ ممّن اصطفاه من عباده أرسلتك إلى قوم كذا، أو إلى الناس جميعاً، أو بلغهم عني كذا، إلى غير ذلك من الألفاظ في هذا المعنى (الإيجي، المواقف، 1997م، ج 2، ص 408).

- 1- (المعتزلي عبد الجبار، المغني، 2000م، ج 15، ص 64).
- 2- كما نقل أبو هاشم الجبائي أن أعرابياً نادى الرسول: يا نبيء الله، فقال له الرسول ﷺ: لست بنبيء؛ وإنما أنا نبيّ الله. راجع لسان العرب، المصدر نفسه.
- 3- الجرجاني، التعريفات، 1986م: 243.
- 4- الطريحي، مجمع البحرين، 2007م، ج 3، ص 56.
- 5- الطوسي، تجريد الاعتقاد، 1996م، ص 46.
- 6- الحلّي، الباب الحادي عشر، 1997م، ص 81.

بوساطة العقل الفعّال على القوّة الناطقة للنبيّ، أو على القوّة المتخيّلة<sup>1</sup>،  
 وإنّا نعتقد أنّ الذي يصلح للنّبوة المتهيّء لها قد لا يتنبأ وذلك بمشيئة  
 إلهيّة، وأنّ كل ما يصلح بحسب جبلته وارتاض بحسب تربيته وتعليمه  
 سيتنبأ...، وقاعدتنا التهيؤ والكمال في الخليّات والنطقيّات ولا بدّ<sup>2</sup>.  
 وعلى هذا، فالنّبوة منصب إلهيّ مجعول من الله للنبيّ ولهذا الأمر فهي أمر  
 اعتباري جعلي يمكن الوصول إليه بواسطة الرياضات، وتحصيل الملكات العالية  
 والكمالات الروحية، فالنبوة لا تتأتّى إلّا للكمال في مبادئ إدراكاته العقليّة  
 والخياليّة، فالله يبنّي الكامل الفاضل في الغاية<sup>3</sup>.  
 ولا بدّ في التّظريّة اليهوديّة من تهّيؤ طبيعيّ في أصل جبلته<sup>4</sup> كطهارة المولد<sup>5</sup>:  
 {قبل أن أصورك في البطن عرفتك، وقبل أن تخرج من الرحم قدّستك}<sup>6</sup>.

1- ابن ميمون، دلالة الحائرين، 1984م، ف لو، 36، 2، ص 400، و ف ل ح، 2، 460.

2- المصدر نفسه، ف لب، 2، ص 390.

3- المصدر نفسه، ف لز، 37، 2، 408.

4- المصدر نفسه، ف لب، 2، 389.

5- هذا وهناك ثلاث نظريّات في النّبوة لدى اليهود:

أ. ما عليه جمهور الجاهليّة ممّن صدق بالنّبوة وبعض عوام شريعتنا وهو أنّ الله تعالى  
 يختار من يشاء من الناس فينبيهه ويبعثه، ولا فرق أنّ يكون ذلك الشخص عندهم  
 عالمًا أو جاهلاً، كبير السنّ أو صغيره، لكنّهم يشترطون فيه خيرية ما، وصلاحيّة أخلاق...  
 ب. وهو رأي الفلاسفة، وهو أنّ النّبوة كمال ما في طبيعة الإنسان، وذلك بعد الكمال لا  
 يحصل للشخص من الناس إلّا بعد ارتياض، يخرج ما في قوة النوع للفعل إن لم يعق  
 عن ذلك عائق مزاجيّ، أو سبب خارجيّ...

وعليه، لا يمكن أن يتنبأ الجاهل ولا يمسي الإنسان غير نبيّ ويصبح نبيًا، وذلك لأنّ  
 الشخص الفاضل الكامل في نطقه وخلقه إذا كانت قوّته المتخيّلة على أكمل ما تكون،  
 وتهيئاً...، فإنّه يتنبأ ضرورة؛ إذ الكمال هو لنا بالطبع ولا يصحّ أن يكون الشخص يصلح  
 للنّبوة ولا يتنبأ...

ج. وهو رأي شريعتنا وقاعدة مذهبنا، وهو الرأي الفلسفيّ بعينه مع فارق وهو « أنّا  
 نعتقد أنّ الذي يصلح للنّبوة المتهيّئ لها قد لا يتنبأ، وذلك بمشيئة إلهيّة، فإنّ الأمر  
 الطبيعيّ أنّ كل نبي يصلح بحسب جبلته وارتاض بحسب تربيته وتعليمه سيتنبأ...،  
 والممنوع من ذلك؛ إنّما منع قسراً. راجع: ابن ميمون، المصدر نفسه، ف لز، 37، 2،  
 ص 408.

6- إرميا، 1: 6.

وأخبرنا بكون أبناء الأنبياء (تلامذتهم) مشغولين دائماً بالتهيو، لكن نجد نصوصاً كثيرة كلها مستمرة على هذه القاعدة وهي أن الله ينبي من يشاء لكن للكامل الفاضل في الغاية، أما الجاهل من العوام فلا يمكن ذلك عندنا أن ينبي إلا كما كان أن ينبي حماراً أو ضفدعاً، لأنه لا بد من الارتياض والكمال، ولا يغلطك قوله: قبل أن أصورك في البطن عرفتك وقبل أن تخرج من الرحم قدستك لأن هذه حال كل نبي لا بد له من تهيو طبيعي في أصل جبلته<sup>1</sup>.

ثم إنه بحسب الكمالات تتفاضل درجات الأنبياء كلهم، فالكاملون تتفاضل درجات كمالهم بحسب كمال القوة الناطقة بالتعلم، وكمال القوة المتخيلة بالجبلية، وكمال الخلق بتعطيل الفكرة في جميع اللذات البدنية وإزالة الشوق لأنواع التعظيمات الجاهلية الشديدة<sup>2</sup>.

فحقيقة النبوة وماهيتها هو فيض يفيض من الله عز وجل بواسطة العقل الفعال على القوة الناطقة أولاً، ثم على القوة المتخيلة بعد ذلك، وهذه هي أعلى مرتبة الإنسان وغاية الكمال الذي لنوعه، وتلك الحالة هي كمال القوة المتخيلة، وقد علمت أفعال هذه القوة المتخيلة من حفظ المحسوسات وتركيبها، والمحاكاة التي في طبيعتها وأن أعظم فعلها وأشرفها إنما يكون عند سكون الحواس وتعطلها عن أفعالها، وحينئذ يفيض عليها فيض ما بحسب التهيو هو السبب في المنامات الصادقة، وهو بعينه سبب النبوة، وإنما يختلف بالأكثر والأقل لا بالنوع... فقد أخبرنا الله تعالى بحقيقة النبوة وماهيتها وأنها تأتي في الحلم أو الرؤيا التي يراد بها أن يحصل للقوة المتخيلة من كمال الفعل حتى ترى الشيء كأنه من الخارج، ويكون الأمر الذي ابتداءه منها كأنه جاءها على طريق الإحكام الخارج، وهذان القسمان فيهما مراتب النبوة كلها كما سيبين، أي بمرأى أو في الحلم<sup>3</sup>.

ومصطلح النبوة عند اليهود في العهد القديم يختلف عنه عند المسلمين، فالنبوة عندهم لها مفهوم آخر، فهي لا تقتصر على من اصطفاهم الله سبحانه وتعالى لهذه المهمة العظيمة، بل يتسع ليشمل كل من يدعي النبوة رجالاً كانوا

1- ابن ميمون، دلالة الحائرين، ف لب 32:2، ص 389.

2- المصدر السابق، ف لو، 2، 367.

3- المصدر السابق، ف لو 26، 2: 368.

أونساءً، وإلى هذا المعنى جاءت الإشارة في سفر حزقيال {قل للذين هم أنبياء من تلقاء ذواتهم، اسمعوا كلمة الرب}<sup>1</sup>، وفي نص آخر ورد في سفر حزقيال {وأنت يا ابن آدم، فاجعل وجهك ضدّ بنات شعبك اللواتي يتبنّان من ذواتهنّ وتنبأ عليهن}<sup>2</sup>.

### معطيات التباين الاشتقاقي وأثره

لقد ترك ذلك التباين، المُتعلّق بالاشتقاق اللّغويّ من جهة، والاختلاف في التواضع والاصطلاح من جهة أخرى، أثره على موقف كلّ فريقٍ منهما على الرّغم من أنّ الذي يجمع الكلّ هو التّمييز بين تعريفين اصطلاحيين للنّبوءة:

1. يرى فيها هبة واصطفاء.

2. يرى فيها رفعة وارتقاء.

قد ذهب كلّ فريقٍ إلى تبني رؤية اصطلاحية للنّبوءة تتسق ورؤيته اللّغوية بما أسس له من نسقٍ معرفيٍّ حدّده وفق مبادئه الاعتقاديّة الواقعية؛ وعلى الرّغم من كوّنها ظاهرة أنّه خلاف اشتقاقيّ إلّا أنّ فيه الكثير من التّأصيل العقليّ والنّظرة المعرفيّة لشخص الإنسان المنبأ.

فإنحاز الأشاعرة بردهم لفظ النّبويّ إلى النّبأ والخبر، إلى أنّها موهبة من الله تعالى، ونعمة منه إلى عبده، وهي قول الله تعالى لمن اصطفاه من عباده: أرسلناك وبعثناك نبياً فبلغنا، ممّا يكشف عن أنّها هبة من الله لا علاقة لها بمعنى يعود إلى ذات النّبويّ، ولا إلى عرض من أعراضه، استحقّقها بكسبه وعمله<sup>3</sup>، وما هذا إلّا؛ لأنّه لا يشترط في الإرسال والابتعاث شرط من الأحوال المكتسبة

1- حزقيال، 2، 13.

2- حزقيال، 17: 13.

وقد جاء عندهم التّصريح بذكر نبيات من النّساء، ففي أسفار العهد القديم من النّبيات: مريم أخت هارون، حيث جاء في سفر الخروج: (فأخذت مريم النّبوية أخت هارون الدف بيدها...) (الخروج، 20: 15)، وفي سفر العدد: (وتكلّمت مريم هارون على موسى... فقالا: هل كلّم الربّ موسى وحده ألم يكلمنا نحن أيضاً؟!)(العدد، 12: 2)، وفي سفر ميخا: (وأرسلت أمامك موسى وهارون ومريم) (ميخا، 4: 6)، ومن الملاحظ في تلك التّصوص أنّ مريم تضع نفسها في الرتبة نفسها مع موسى وهارون.

3- الأمدي، غاية المرام في علم الكلام، 1971م، ص 317.

بالرياضات والتريّض.

وبعبارةٍ أخرى، أنه عندما تكون النبوة إنباءً وإخبارًا، فلا يقتضي الأمر أكثر من أن يصطفي الله من عباده من يشاء ويرسله بهذا الخبر، فإن جوهرها حقيقة هو قولاً لا فعلاً وهو ليس إلا الإنباء والإخبار كما مرّ.

أسس المعتزلة نظريتهم أن النبوة صفة للفعل لا صفة للقول. ولذلك، عندهم أن ردّها لغة إلى الإنباء يقوِّض الاتساق المنطقي بين ضربَي المعنى (اللغوي والاصطلاحي) فينقطع بينهما التّواصل ويختلّ الانتقال<sup>1</sup>. ولذا، فإنّها تكون رفعة وارتقاء لا هبة واصطفاء، فهي رفعة مخصوصة يستحقّها الرّسول إذا قبل الرسالة، وتكفّل بأدائها والصّبر على عوارضها<sup>2</sup>.

لذلك، فقد اشتهر بينهم أن النبوة ثواب على عمل ونتيجة لمجاهدة الله لأنبيائه واصطفائهم، واختصاصه إيّاهم بالنبوة<sup>3</sup>، وهم هنا تحديداً يلتقون مع الفلاسفة الذين رفضوا رفضاً قاطعاً أنّها هبة واصطفاء. ومن ثمّ، طوّروا نظريتهم وربطوها بالعقل الفعّال.

نتلمّس في النّفس النبويّة المصطفاة لتلقّي الوحي قدرات وخصائص تميّزها، بعد تلبسها بصفة النبوة، عن سائر النّفوس البشريّة. فالنّفس النبويّة؛ لكي تكون لها ملكة الاتّصال بعالم غريب عن عالمها، وهو الأفق الأعلى لتستمدّ منه الوحي، لا بُدّ لها من استعداد فطريّ محض ليس للكسب فيه أثر؛ بحيث تكون في ذروة الإنسانيّة، قادرة على احتمال انكشاف حجاب هذا العالم الغريب، حيث «تشهد من أمر الله شهود العيان ما لم يصل غيرها إلى تعقله، أو تحسّسه بعصى الدليل والبرهان»<sup>4</sup>.

1- ذلك النّزاع لا ينحصر في الآهوت الإسلاميّ؛ بل لقد أظهر كلّ من الفكر اليهوديّ والمسيحيّ في القرون الوسطى وضعاً مشابهاً لهذا الوضع الثنائيّ لمسألة النبوة عند المتكلّمين، لا بل قد لاح قدر من التماثل بين رؤية كلّ منهما وبين رؤية المعتزلة، حيث قد تساءل القدّيس توما الإكويني عمّا إذا كانت النبوة معرفة أم معجزة؟، وانتهى إلى أنّها تقوم أولاً على المعرفة ثمّ المعجزة، وكذلك ابن ميمون، حيث انتهى إلى أنّها غير ممكنة دون تربية وتدريب.

2- المعتزلي، مصدر سابق، ص 16.

3- الأشعري، مقالات الإسلاميين، 2011م، ص 122.

4- محمد عبده، الأعمال الكاملة، 1991م، 415.

- وهذا ما عبّر عنه الفخر الرّازي، حيث ذكر أنّه يُشترط في النّبّي أمور، منها:
1. في قوّته العاقلة؛ وهو أن يكون كثير المُقدّمات، سريع الانتقال منها إلى المطالب من غير غلط يقع له فيها.
  2. في قوّته المُتخيّلة؛ وهو أن يرى في حال يقظته ملائكة الله تعالى، ويسمع كلام الله، ويكون مُخبرًا عن المغيّبات الكائنة والماضية والتي ستكون.
  3. أن تكون نفسه مُتصرّفة في مادّة هذا العالم فيقلب العصا ثعبانًا والماء دماءً، ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، إلخ<sup>1</sup> ...
- بما أنّه يوجد مع النّبوة مفاهيم من قبيل الوحي والإعجاز لا تنفك عنها. لذلك، كان لا بُدّ من الإضاءة على جزء منها؛ كي يتّضح موضوع البحث أكثر.

### الوحي لغة

1. الوحي في اللّغة: الإشارة، والكتابة، والإلهام، والكلام الخفيّ، وكلّ ما ألقيته إلى غيرك<sup>2</sup>.
- وأصله: الإشارة السّريعة؛ وذلك يكون بالكلام على سبيل الرّمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرّد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة<sup>3</sup>، وهو مصدر وحي إليه يحي من باب وعد يعد؛ بمعنى الإعلام في خفاء. وأوحى إليه بالألف مثله أيضًا، ومصدره الإيحاء.
2. قد ذكر اللّغويون لكلمة الوحي معانٍ كثيرة كالإشارة، والكتابة، والإلهام، والكلام الخفيّ<sup>4</sup>، قال ابن فارس: (و، ح، ي) أصل يدلّ على إلقاء علم في إخفاء أو غيره، والوحي: الإشارة. والوحي: الكتاب والرّسالة. وكلّ ما ألقيته إلى غيرك حتّى علمه فهو وحي، كيف كان<sup>5</sup>.

1- الفخر الرّازي، مصدر سابق، 523 .

2- ابن منظور، مصدر سابق، ص 203.

3- الأصفهاني، 2003م، ص 558.

4- الزمخشري، أساس البلاغة، 1953م، ص 494.

5- ابن فارس، مقاييس اللغة، 1417، 6: 93.

3. قال الزمخشري: أوحى إليه وأومى بمعنى؛ ووحيت إليه وأوحيت: إذا كلمته بما تخفيه عن غيره. وتوحى؛ أي أسرع<sup>1</sup>.

### الوحي اصطلاحًا

اختلفت كلمات العلماء في الاصطلاح على الوحي، فقيل:

1. «الوحي معناه في الشُّرع أن يُعلم الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه إليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سرّية خفية غير معتادة للبشر»<sup>2</sup>.
2. وقيل: هو الإعلام بالشرع، وقد يطلق الوحي ويراد به اسم المفعول منه؛ أي الموحى، وهو كلام الله المنزل على النبي.
3. كما «... قد عرّفوه شرعًا: بأنه إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعيّ ونحوه، أمّا نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قِبَل الله بوساطة أو بغير وساطة، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت، ويفرق بينه وبين الإلهام بأنّ الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتتساق إلى ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى، وهو أشبه بوجودان الجوع والعطش والحزن والسُرور»<sup>3</sup>.
4. ذهب صدر المتألهين إلى أنّه إذا أعرضت النفس عن دواعي الطبيعة، وظلمات الهوى، والاشتغال بالشهوة والغضب والحس والخيال، وولت بوجهها شطر الحقّ، وتلقاء عالم الملكوت، أتصلت بالسعادة القصوى، ولاح لها سرّ الملكوت، وانعكس عليها قدس اللاهوت، ورأت عجائب آيات الله الكبرى، وتلقّت المعارف الإلهية من الله، فيتعدى تأثيرها إلى قواها، وتمثّل لها صورة ما شاهده، فتمثّل للحواس الظاهرة لا سيما السَّمع والبصر، فيرى ببصره شخصًا محسوسًا في غاية الحسّ والصّباحة، ويسمع بسمعه كلامًا منظومًا في غاية الجودة والفصاحة؛ فالشخص هو الملك النازل بإذن الله الحامل للوحي الإلهي، والكلام هو كلام الله؛

1- الزمخشري، مصدر سابق، ص 496.

2- الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، 2014م، 1، ص 64.

3- الرومي، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، 1983م، 2، ص 486.

وهذا الأمر المُتمثل ليس إلا مجرد صورة خيالية لا وجود لها خارج  
الذهن والتخيل<sup>1</sup>.

وأنحاؤه في الديانة اليهودية على أربع صور:

1. أن يصرح النبي أن الخطاب كان له من الملك في حلم، أو في مرأى،  
كأن يتمثل له الشيء فيدركه وكأنه ينظر إليه وهذا يحدث في الواقع في  
مرتبة الخيال.

2. أن يذكر خطاب الملك فقط، ولا يصرح أن كان ذلك في حلم، أو في  
مرأى أتكالاً على ما قد علم أن لا وحي إلا على أحد الوجهين؛ فبالرؤيا  
أتعرف إليه، وفي الحلم أخاطبه.

3. أن لا يذكر ملكاً أصلاً؛ بل ينسب القول إلى الله لكنه يصرح أنه أتاه  
ذلك الكلام في مرأى، أو في حلم.

4. أن يقول النبي قولاً مطلقاً أن الله كلمه، أو قال له إفعال، أو اصنع من غير  
تصريح، لا بذكر ملك، ولا بذكر حلم أتكالاً على ما قد علم وتواصل أن  
لا نبوة ولا وحي يأتي إلا في حلم، أو في مرأى، وعلى يدي ملك<sup>2</sup>.  
وأما أسفار العهد القديم ففيها صور لتلقي الوحي، قد تتلاءم مع ما  
سبق، وقد تختلف عنها، لا حاجة لذكرها<sup>3</sup>.

والخلاصة، إن الوحي إما أن يأتي النبي في الحلم، أو يتمثل له مثلاً  
يدركه بوساطة القوة العاقلة، ومنها تفيض على القوة المتخيلة على نحو  
الخلو، وإما أن يكلم الله النبي مباشرة.

وإذا بعث شخص بالنبوة فإنه لا يستطيع التراجع، أو إمساك الفيض الذي  
يفيض عليه من العقل الفعال، فلا بُدَّ من دعوة الناس سواء قبل منه، أو  
لم يقبل، ولو أودى في جسمه، أو قتل؛ فالفيض يحركهم ولا يتركهم يقرّ  
لهم قرار، ولا يسكنوا ولو لقوا الشدائد<sup>4</sup>.

1- صدر المُتأهين، الأسفار العقلية الأربعة، 1980م، ج7، ص 25.

2- ابن ميمون، مصدر سابق، ف ما، 41، 2: 401.

3- راجع: العدد، 6: 9؛ التكوين، 1: 15 و 2: 46 و 1: 21 و 8: 15 و 1: 35 و 19: 16 و 31: 11؛  
حزقيال، 4: 40 و 4: 28 و 8: 3، 4 و 2: 9، 10 و 3: 1، 2.

4- ابن ميمون، مصدر سابق، ف لز 23، ج2: 350.

5. والوحي في المنظور الفلسفي اليهودي على درجات واقعة بحسب مراتب الذهن البشري؛ فمنه عقلي، ومنه خيالي وليس له وجود حسي؛ لأنه من منظور المشاء لا واقعية للملك، ولا للصوت في مرتبة الحس؛ لأن قوة المُتخيِّلة في ذهن النبي هي التي تُوجد الصوت وصورة الملك في تلك المرتبة. ثمّ ينعكس من الخيال إلى مرتبة الحس، والوحي هو حقيقة النبوة وماهيتها وهو فيض من الله عزّ وجلّ بوساطة العقل الفعّال على القوة الناطقة أولاً ثمّ على القوة المُتخيِّلة، وذلك كلّه يثبت لنا أنّ النبوة متقاسمة بين نظريتين: فاعلة، ومنفعلة؛ وكل ما يقال حولها من نظريات لا يعدو هذين الأمرين على الرّغم من الحديث عنهما بيّعد كلامي وفلسفي تارةً وكتابي وروائي تارةً أخرى.

### قراءة تاريخية لتجاذبات الفعل والانفعال في النسق التنبؤي

إنّ تجاذب النظريتين في النبوة بين أنصار الفعل الفردي، وأنصار الفعل الكوني الوجودي في النبوة مُتجذّر في الوعي الميثولوجي والأثولوجي الديني للفرد؛ إذ إنّ النبوة ظاهرة شائعة على مستوى العالم بأسره منذ أقدم العصور، ولا يوجد شعب لم يعرف وحي الآلهة بشكل أو بآخر، كما أنّه قد ظهر أناس مُلهَمون في كلّ زمان ومكان تقريباً، يؤمنون بأنهم وُهبوا قوى روحية لم تتوفّر لغيرهم؛ إذ لا يوجد بين الأمم من لا يرى شواهد تُنبئ عن حوادث المستقبل، وأنّ بين الناس من يستطيع معرفة تلك الشواهد والتنبؤ بالحوادث قبل وقوعها، وهو اعتقاد ينحدر من عصر الأساطير<sup>1</sup>.

قد وجد الباحثون في المجتمعات الأكثر بدائية أناساً مُتخصّصون بالاتصال مع القوى التي تسود الإنسان أو تُسيطر عليه، يُمثّلون الجماعة في علاقتها مع المقدّس والحقيقة الغائبة، وقد حفل التاريخ بأمثالهم، ويُعرفون بالوسطاء بينهم وبين عالم المغيّبات.

لم يقف هذا الأمر عند مجرد شيوع الظاهرة وعموميّتها؛ بل يتعداه إلى ضرب من التشابه القويّ بين رؤى الشعوب المختلفة للنبوة، ويكفي ملاحظة التشابه الكبير الموجود بين تفكير المصريين والعبرانيين والإغريق حول الإلهام

1- شيشرون، علم الغيب في العالم القديم، 1946م، ص 35.

والنبوة بدرجة كبيرة من التشابه، وكذلك سطر الوثنيون واليهود والمسيحيون عن الوحي تعابير واحدة في عصر الإمبراطورية الرومانية، وهذا شاهد آخر على أن ظاهرة النبوة واحدة وشاملة.

### 1. فلسفة تجذّر النبوءات في الإنسان (نظريات النسق غير الديني):

هذا الأمر في الواقع لا يرتبط كثيرًا بالتبادل الحضاري والتأثر بالجوار؛ وإنما إلى كون النبوة ترتبط بجانب خاص في الإنسان؛ ينزع به إلى تجاوز تحديدات الزمان وقيوده. ومن ثمّ، محاولة التّجاوز عنها وقهرها، طلبًا لحسّ التّفوق والاطّلاع على المغيّبات، وهذا ما تؤمّنه النبوة والتنبؤ والوساطة بين القوى المسيطرة العليا والقوى الخاضعة الدنيا.

لا؛ بل يمكن للنبوة أن تتحوّل في مرحلة انعطاف خاصّة إلى فكرة يمكنها أن تعمّر البشر باطمئنان ميتافيزيقي، وهي هنا تكون جزءًا من الأنطولوجيا لا محالة؛ لأنها تبدو حينئذ سبيلًا للإحاطة بوضع الوجود البشري في العالم، كما أنّ البشريّة تؤكّد النبوة؛ إذ إنّ الوجود يبدو غريبًا هشًا ما لم تلامسه الأبدية تلامسًا يكتسب من خلالها دلالتة التاريخية المشتركة.

### أ. النبوة في مصر القديمة:

طوّر المصريون فنًا خاصًا من النبوة اكتسبوه عن أجدادهم خلال ماضٍ سحيق<sup>1</sup>، على الرّغم من أنّ النبوة الخارقة لم تكن أمرًا مألوفًا في مصر القديمة، حيث إنّ النبوة التقليدية كانت ذات أهميّة عظيمة للذين اعتمدت حياتهم على ما تقوله الآلهة إلى حدّ كبير<sup>2</sup>؛ ما انعكس على طبيعتها ومصادقيتها، فتعدّدت ميادينها من تعيين للملوك والكهنة إلى التعرّف إلى اللّصوص، وسؤال الآلهة حول الطّالع والغزو وفتح البلاد وغيرها، وقد ذكر أنّ «حتشبسوت» قامت بفتح بلاد بونت بناءً على نبوءة من آمون، وكذلك الملك «تحتمس الرابع» أرسل حملة عسكريّة إلى بلاد النوبة طبقًا لنبوءة من آمون نفسه أيضًا.

هكذا، كان الوحي والاتّصال بالآلهة يؤدّي دورًا مهمًّا في تسيير البلاد من

1- شيرون، المصدر السابق، ص 36.

2- النبوءة الخارقة هو ذلك الضرب من النبوءات التي تلتحم بالتاريخ في لحظة فريدة لا تتكرّر كثيرًا فيتميّز ما قبلها بما بعدها؛ وأمّا النبوة التقليديّة فهي ضرب من النبوة التي عرف بها المصريون كان يخضع لنمط خاص غالبًا ما يتكرّر كالقول مثلًا أنّ أوقات الشدّة يتبعها رخاء وهكذا. (مبروك، النبوة، 1977م، ص 57).

الناحيتين: السياسيّة والاجتماعيّة، حيث كانت تشترك مع المصريّين في حياتهم اليوميّة اشتراكًا وثيقًا إلى الحدّ الذي أوضحت فيه استشارة الآلهة قبل القيام بأيّ عمل واحدةً من أهمّ العادات الدنيويّة الشائعة عند عامّة الشعب<sup>1</sup>.

ذلك كلّه يكشف أنّ النبوّة لم تكن تعكس حاجة معرفيّة للشعب فقط؛ بل تُمثّل مطلبًا وجوديًّا يتّصل بوجود الشعب نفسه، كما أنّ الكهنة هم من كانوا يقومون بهذا الدور المهمّ في توجيه الأقوال التي كان يُدلي بها الإله، حيث لم تكن طبيعة الإله نفسه تسمح بأكثر من ذلك في مشهد يكشف حقيقة الارتباط الوثيق بين مفهوم (الألوهيّة) من جهة، ومفهوم (النبوّة) من جهة أخرى.

### ب. نبوءات الشرق القديم:

قد بلورت المسألة الدنيويّة شغف النَّاس ووجدانهم في الشرق القديم، حيث انشغلوا بإله حاولوا أن يجدوا سبيلًا للاتّصال به والتعرّف إليه وفهم مقاصده ومراميه. ومن هنا، نشأت الحاجة عندهم إلى (النبوّة والعرفّة) التي قام عليها الكثير من الرّائين والعرفّين الذين كانت تغصّ بهم معابد الشرق الأدنى القديم. هكذا، مثل التنبؤ، أو العرفّة واحدًا من أكثر جوانب الدّين أهميّة في بابل وآشور، ولا يوجد شعبٌ آخر غيرهما حاز نظامًا للتنبؤ والعرفّة على مثل تلك الدرجة من الإحكام والتركيب، بما في ذلك التعرّف إلى وحي الأرباب والاحتكام إليهم في القضايا والقسم في حضرة تماثيلهم، وذلك كان شأنًا بين الكبار والعاديين من السومريين المتديّنين<sup>2</sup>.

قد تنوّعت أشكال العرفّة والنبوءة إلى حدّ كبير؛ فبينما لاحظ الكلدانيون النجوم وحركة الكواكب، كان البابليون والآشوريون يعتمدون على الأحلام وتقديم القرابين لمعرفة إرادة السماء وكشف المستقبل. وجاءت النصوص لتسجّل تحوّلًا ملحوظًا في طبيعة النبوّة ذاتها، وقد انطبق هذا الوصف تقريبًا على الأنبياء العبرانيين. من هنا، قيل: إنّ الكشوفات الأخيرة في بلاد ما بين النهرين قد تمخّضت عن نصوص عدّة تظهر تشابهًا لافتًا مع نبوءة العهد القديم، حيث بات

1- سليم حسن، مصر القديمة، 1952م، 9، ص 457.

2- صالح، الشرق الأدنى القديم، 1984م، ج1، ص 398.

كما استغلّ الكلدانيون ملاحظ المجموعات النجميّة لإقامة علم يُمكنهم من التنبؤ بحظوظ النَّاس، ومعرفة المصير الذي قدّر لهم، فشاعت العرفّة والتنبؤ بين مختلف شعوب الشرق القديم. (شيشرون، مصدر سابق، ص 36).

الأنبياء ينطقون بكلمة الإله «يهوه» كما كان أنبياء بابل ينطقون بكلمة الإله «داجون»<sup>1</sup>، وإن كان هناك فرق شاسع جداً بين الوظيفتين؛ فأنبياء التوراة ينطقون باسم الإله خالق السماوات والأرض بخلاف أنبياء داجون، كما معظم الأنبياء القدامى ينطقون باسم الإله المحلي لهم، أو رب النوع وما شابه ذلك.<sup>2</sup>

### ج. التبوءة عند اليونان والإغريق<sup>3</sup>:

أما التبوءة والعرافة فقد نظر إليها الإغريق بتقدير عظيم، حتى إن أفلاطون قد سمح لـ «بيثيا» عرّافة معبد دلفي أن تؤدّي وظيفتها في جمهوريته المثالية، حيث

1- إن كان هناك فرق شاسع جداً بين الوظيفتين فأنبياء التوراة ينطقون باسم الإله خالق السماوات والأرض بخلاف أنبياء داجون كما معظم الأنبياء القدامى ينطقون باسم الإله المحلي لهم، أو رب النوع وما شابه ذلك، وهذا لا يتنافى مع ما ذكره راسل من أن العبرانيين لم يجدوا في يهوا بادئ ذي بدء سوى إله قبليّ يقرب إليه أبناء إسرائيل. (مبروك، مصدر سابق، ص 63).

2- ذلك لا يتنافى مع ما ذكره راسل من أن العبرانيين لم يجدوا في يهوا بادئ ذي بدء سوى إله قبليّ يقرب إليه أبناء إسرائيل. (المصدر نفسه، ص 63).

3- كان المفترض التعرّض للتبوءة في ديانات الشرق الأقصى، لكن طبيعة البحث فرضت فرده لاحقاً ببحثٍ مستقلّ نظراً إلى انتفاء الدور الذي تقوم به التبوءة فيها، وهذا يعود إلى الطبيعة الباطنية لها، والتي ترتدّ إلى عناصر أعمق في التحليل، ذلك أنّ الروح فيها غير منفصلة عن الطبيعة؛ ما يعني أنّ الألوهية هي مضمون كلّ شيء، والإله هو الوحدة الطبيعية للروحي والطبيعيّ على السواء، وتلك الصيغة من التدنّين قد حدّتها نمط الحياة الطبيعيّة إذ ذاك. (شاتليه فرانسوا، 1976م، هيجل، ص 164).

ولهذا، يسيطر على تلك الديانتين الشعور بالجزئية التي تضمنها الكلّيّ وانصهرت به، والكلّيّ هو الوجود الخالص وكل شيء قد ذاب فيه كما تذوب السواقي في الأنهار والأنهار في البحار والبحار في المحيط، فالوعي التجريبيّ الجزئيّ مضاف إليه كل الجزئيات في الطبيعة والعالم المتناهي هي كلها عدم أمام هذا الكلّي. (ستيس، فلسفة هيجل، 1980م، ص 671) فاستحال الوجود وحدة لا انفصال فيها. لذلك، كان الوحي في الديانات الهندية ولاحقاً في بعض التفاسير المسيحية، لا ينظر إليه على أنّه حادثة تقع في لحظة تاريخية معيّنة يكشف فيها الإله نفسه لشخص محدّد؛ بل هو وحي لا زمنيّ (Timeless). لا يختصّ بأشخاص بعينهم؛ بل يحول الطاقة المستبطنة في الإنسان إلى فعالية ظاهرة، فبوذا مثلاً لا بمعنى أنه تلقى وحيًا خاصًا من موجود مفارق؛ بل بمعنى أنّه بلغ طور الاستنارة الكاملة بعد تأملات في الوجود اختلى فيها بذاته. لذلك، كانت لفظة بوذا تعني «المستنير» (Enlightened one) ذلك الذي أُنارت ذاته معرفة اكتسبها من تأملاته ليس وحيًا تلقاه من إله خاص.

(Lewis, Religions of the world, 1979, 12)

إنَّ عَرَافَةَ مَعْبِدِ دَلْفِي وَكَاهِنَاتِ مَعْبِدِ دُودُونَا، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُمْ لَمْ يَهَاجِرُوا إِلَى أَيُونِيَا، أَوْ آسِيَا، أَوْ صَقْلِيَّةِ قَبْلَ أَنْ يَسْتَشِيرُوا الْكَاهِنَةَ بَيْثِيَا، أَوْ يَتَلَقُوا الْوَحْيَ مِنْ دُودُونَا، كَذَلِكَ لَمْ يَخُوضُوا أَيَّ حَرْبٍ قَبْلَ اسْتِشَارَةِ الْآلِهَةِ أَوَّلًا<sup>1</sup>، وَكَانَ أَهْلُ أَثِينَا لَا يَعْقدُونَ اجْتِمَاعًا عَامًّا إِلَّا إِذَا حَضَرَ أَهْلُ التَّنْبُؤِ، كَمَا خَصَّصَ الْإِسْبَرُطِيُّونَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْعِيَاةِ<sup>2</sup> لِيَتَوَلَّى نَصْحَ الْمُلُوكِ.

هناك من يردّ ذلك إلى عامل نفسي؛ بمعنى أنّ ذلك الأمر على الرغم من كونه ظاهرة عامة بين الشعوب، إلا أنه في مكان ما يعكس نوعًا من الإحساس بالضعف العقلي عند الأمة، «حيث كانت الأمم القديمة تحتاج إلى استشارة الآلهة؛ لأنها كانت في حالة من الضعف العقلي والاجتماعي لا تتمكن معها من الاعتماد على نفسها في شيء»<sup>3</sup>.

من هنا، نرى أنّ النبي بوصفه مُفسّرًا لإرادة الله يظهر للمرّة الأولى عند هومر<sup>4</sup> مُتمثّلًا في صورة بدائية بسيطة دون أن يخفي أنّها ارتبطت ارتباطًا وثيقًا ودائمًا بأزمة تجابه المصير البشري في مستواه الفردي أو الجماعي. كما أنّه رويّدًا رويّدًا تعالت بعض الأصوات للتعبير عن أنّ أزمات المصير يمكن مواجهتها لا من خلال النبوءات فقط؛ بل من خلال الجهد العقلي للإنسان أيضًا، يدلّ على ذلك المحاورة التي سجّلها سوفوكليس، والتي دارت بين أوديب وبين تيريسياس الضّير، حيث كان تيريسياس يزعم بثقة مفرطة أنّه يحتفظ بالحقيقة القويّة، فاندفع أوديب بتناوله بالنقد قائلاً: «كيف ذلك؟ ولماذا لم تتفوّه بكلمة حين كانت الكلبة؟!<sup>5</sup> تلقي أشعارها على كلّ من يزعم أنّه خليفة الكاهن، ولكن اتّضح

1- شيشرون، مصدر سابق، ص 36.

2- العيافة: زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرّها وطيرانها، ومما قيل فيها في أشعار العرب وموروثهم:

وَمَنْ لَا يَعْيفُ الطَّيْرُ إِنْ سَنَحَتْ لَهُ وَإِنْ خَالَطَ الْمَاءَ امْتِنَانًا تَعَيْفًا.

(ابن منظور، مصدر سابق، ج9، ص 260) وفي الحديث النبوي: إنّ العيافة، والطرق، والطيّرة من الجبت. (البهقي، السنن الكبرى، 2003م، ج8، 139ح: 16957).

3- طه حسين، مقدّمة كتاب النبوة، المغني، مصدر سابق، ص 62.

4- Homer.

5- الكلبة هي الحيوان أبو الهول الذي تقول الأسطورة أنّه كان يقبع على باب المدينة ملقيًا بلغزه الشّهير على كل قادم إليها، فإذا عجز عن الجواب كان نصيبه الموت، ←

أَنَّ الآلهة لا تلهمك شيئاً، وأنَّ الطير لا يعلمك شيئاً، أمّا أنا أوديب الذي لم أعلم شيئاً، فجئت وأسكت هذا الحيوان بحكمتي لا بعلم الطير<sup>1</sup>.

من منظور أفلاطون، فإنَّ «عدم الاكتراث بالنبوءات لا يتحقّق إلاّ ببلوغ الإنسان تمام قواه العقلية»؛ ما يعني أنّ ذلك يحمل على الزعم بأنّ هناك توجّهًا عامًّا تحقّق للنهوض بالعقل الإغريقيّ نحو الاكتمال، وذلك ما يشتهه التتبع التاريخي، حيث إنّ الزمن الذي عاش فيه سوفوكليس في المرحلة ما بين 495 و 405 ق. م، وهي المرحلة ذاتها التي بدأت شهدت أقطابًا كبيرًا أمثال سقراط 470 - 399 ق. م، وأفلاطون 428 - 348 ق. م، وأرسطو 384 - 322 ق. م، فكان انبثاق العقل في كتابات سوفوكليس محايثًا ومتوازيًا لانبثاق العقلانية الإغريقية بصفة عامة<sup>2</sup>، وذلك ما أكده نيتشه، حيث يعنى على الفكر الإغريقيّ تحوّل في المرحلة ذاتها تقريبًا، عن ينابيعه الصوفية والمساوية إلى عقلانية جافة ومذهبية مشوهة<sup>3</sup>.

من هنا، أمكن التمييز بين نمطين من النبوءة عند الإغريق:

- النمط العلمي، أو المتعقلن<sup>4</sup> للنبوءة، وفيه يقوم العراف أو المتنبئ بتأويل العلامات والإشارات وفقًا لمبادئ ثابتة يقوم عليها التأويل، ويبقى المتنبئ في هذا الإطار إنسانًا مسيطرًا على نفسه<sup>5</sup>، غير خاضع لتأثير أيّ قوة، فهو يدّعي لنفسه القدرة على قراءة ما تقوله الآلهة؛ بسبب ما تعلمه فقط.

← وكان أوديب هو الوحيد الذي فكّ اللغز فدخل المدينة (طيبة) حاكمًا عليها جزاءً له على إماتة الحيوان بفكّ اللغز. (سوفليكس، أوديب ملكاً، 1974، ص 29).

1- سوفليكس، أوديب ملكاً، 1974، ص 29. وهكذا يبدو وللمرّة الأولى أنّ ثمة سببًا آخر غير النبوءة لمجابهة المخاطر ألا وهو الحكمة الإنسانية، كما أنّه يبلغ به أوجها حين يقول: «من أجل ذلك لن أكرث في المستقبل بأيّ نبوءة تأتي من هنا، أو من هناك. (المصدر نفسه، ص 55).

2- مبروك، مصدر سابق، ص 70.

3- نيتشه، الفلسفة في العصر المساويّ الإغريقيّ، 1981م: 43.

4- Some.

5- Self-Possessed.

- النمط الجذبي<sup>1</sup> والحدسي<sup>2</sup> والحماسي<sup>3</sup>، أو غير المتعقل<sup>4</sup> للنبوء، ويكون النبي والعراف هنا إنساناً سيطر عليه الإله تماماً؛ بحيث يتحول إلى فم يتحدث من خلاله الإله نفسه.

#### د. النبوة والكهانة عند العرب قبل الإسلام:

لا يخفى أنّ الفكر العربي قبل الإسلام قد خلا بشكل عام من أي أثر للفكر النظري الخالص<sup>5</sup>؛ بمعنى أنه لم يكن هناك محاولات مكتوبة نظرية تفسر الوجود وحقيقة الارتباط به، ولا مكانة الإنسان في هذا الكون، إلا أنّ هذا لا يمنع من تشكيل نسق نظري متكامل وبلورته يلملم شتات ظاهرة النبوة والكهانة عند العرب قبل الإسلام بناءً على الفكر البشري العام، وإن تباينت طرق التفكير وأدواته، يمكننا من فهم النسق الميثولوجي وتبينه الذي تتخذه النبوءات مساراً لحركتها من الأسفل إلى الأعلى؛ أي طلباً من الإنسان للاتصال بإله طالباً عوناً وعلمه.

وعلى الرغم من أنّ ذلك لم يكن مشاعاً لأيّ كان؛ بل منحصرًا على الكهنة والعرافين الذين كانت تلجأ إليهم القبيلة. لذلك، كانت كل نبوءاتهم تقريباً تُعبر عن ردّ من الإله على سؤال من قبل الإنسان، وذلك ما توضحه الطرق المستخدمة للتنبؤ، فإنّها جميعاً كالاستسقاء بالأزلام والزجر تُمثل جهداً إنسانياً خالصاً للتعرف إلى مقاصد الإله وإرادته في أمر من الأمور<sup>6</sup>، كما أنّ منهم من يرى في الزجر عملاً يتجاوز مجرد التفاؤل والتشاؤم إلى كونه عملاً يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سحور طائر، أو حيوان والفكر فيه بعد مغيبه؛ وهي قوّة في النفس تبعث على الحرص والفكر في ما زجر فيه من مرئي أو مسموع،

1- ecstatic.

2- intuitive.

3- enthusiastic.

4- insom.

5- أوضحنا في كتابنا (الفكر والحضارة في الجزيرة العربية) أنّ قول المحققين هذا قائم على حصر الجزيرة العربية في شمالها فقط، لا على ما هو التحقيق من أنّها تمتدّ حتى تشمل العراق وسوريا واليمن وبادية الشام. (راجع: علي هاشم، الفكر والحضارة في الجزيرة العربية، 2018م، ص36).

6- مبروك، مصدر سابق، ص 78 .

وتكون قوته المخيلة قوية فيبعثها في البحث مستعيناً بما رآه، أو سمعه فيؤديه ذلك إلى إدراك ما<sup>1</sup>.

وهنا، نجد أول اقتراب لتعمّل فلسفي تأملي يرتبط باستثمار القوة المُتخيلة لتفسير عملية التنبؤ، وهي القوة التي وجد فيها الفلاسفة المسلمون مصدراً للنبوة، إلا أن الزجر يبقى انعكاساً لجهد إنساني خالص.

إذا كانت النبوءات تكشف حقاً عن بناء عام للوجود الإنساني، فإن ذلك ينفي تماماً اختصاصها بحضورها دون غيرها؛ بحيث لا يبقى مجال للحديث عن نبوة بدائية ونبوءات غير بدائية؛ إذ هي واحدة من حيث المبدأ لا تختلف إلا من جهة النسق وآلية المنحى، وذلك على الرغم من أن البدائي لم يكن يعرف حقاً معنى النبوة إلا في الوقت الذي أيقن فيه أن الاتصال (الاتصال الشخصي) بالآلهة مُتعدّر، على الرغم من أن هناك الكثير من الأساطير البدائية التي كشفت عن مرحلة من الاتصال الشخصي بالآلهة<sup>2</sup>. وهكذا، تشكلت بدايات النبوة التقليدية بعد أن سعت الجماعات إلى الاتصال بالسماء للتعرف إلى المستقبل من خلال ما يحمله عضو الجماعة؛ ليتشكل الاعتقاد بأن الآلهة قد أصابته بالمس.

هكذا نشأت النبوءات البدائية وهي من دون شك تنتمي إلى نسق النبوءات الميثولوجية؛ لأنها - بحسب ذاتها ومنشئها - تمثل ملاحقة من الإنسان للإله بعد أن تركه، من منظوره، وصعد إلى السماء، ولأن الإنسان لم يقوَ على مواجهة العالم وحيداً، فقد اتّسمت تلك النبوءات بأهميّة بالغة، وقد استطاع المُتنبّون أن يصوغوا أقدار أممهم وقبائلهم في مناسبات عدّة<sup>3</sup>.

## 2. فلسفة تجذّر النبوءات في الإنسان (نظريات النسق الديني)

ينتمي كلّ ما تقدّم إلى الآن إلى نسق النبوءات غير الدينية، وهو النسق الميثولوجي الذي بدأ بمبادرة إنسانية خالصة، أو أنها كانت لا أقل رداً إلهياً على سؤال إنساني محض، وكان ذلك - من دون شك - انعكاساً لبنية تصوّرية أعمق وجد فيها البدائي تفسيراً لوضعه في العالم، بعد أن ترك بناء الوعي عنده تأثيراً حاسماً على أنماط التنبؤ السائدة في النبوءات الميثولوجية؛ بحيث يمكن التمييز

1- ابن خلدون، المُقدّمة، 2002م، 1، 420.

2- فريزر، الفولكلور في العهد القديم، 1982م، ج1، ص 332.

3- مبروك، مصدر سابق، ص 83.

داخل النسق نفسه بين نمطين أساسيين للنبوءة يعكس كل منهما بناءً معينًا للوعي والواقع، أحدهما (النمط الطبيعي) والآخر (النمط الذاتي).

- النمط الطبيعي: وهو ما التصقت نبوءات ذلك النمط بالطبيعة التصاقًا تامًا؛ بحيث كانت إرادة الإله تكشف عن نفسها في نبوءات ذلك النمط من خلال موجودات الطبيعة<sup>1</sup>؛ ما يكشف عن عالم بدائي أظهر نفسه بنبوءاته، وقد ارتبط بنزوع مفرط للطبيعة في صياغة الوعي؛ إذ لم يكن الإنسان ليميز نفسه عن الطبيعة بعد أن أحس نفسه في هوية معها. لذلك، نجد الإنسان البدائي يشير إلى عالم الظواهر المحيط به بضمير المخاطب ليؤكد توحيده بالعالم الذي يتخذه بوصفه رفيقًا وصديقًا يحاith وجوده، ذلك في حين يشير إلى الكون والعالم بضمير الغائب ليؤكد انفصاله عنه<sup>2</sup>.

- النمط الذاتي: وهو المبني على فرضية أن الوعي غير المنفصل عن الطبيعة في الواقع يعني أن ليس هناك وعي أصلاً؛ لأن الوعي سوف يكون عندئذ مجرد جزء من أجزاء الكون. ولذا، فهو يستلزم ضرماً من التمايز عن موضوعه؛ ما فرض أن تنشق الذات لتحقق ذلك التمايز بوصفها عاملاً جوهرياً في المعرفة<sup>3</sup>.

هكذا، تحوّل الوعي من بناء طبيعي إلى بناء ذاتي ترك أثره على النبوءات، حيث انتقل الإنسان من التعرف إلى إرادة الله من خلال الأشياء في الطبيعة إلى قلب الذات من خلال الحلم والرؤيا. وهذا بحق يتطابق مع مسيرة الوعي الإنساني الذي ينتقل من مرحلة الالتصاق والوحدة في الطبيعة إلى مرحلة الانفصال والانقسام ووعي الذات بما هي ذات<sup>4</sup>؛ لتحقق نبوءات النمط الذاتي

1- ذلك من خلال أحشاء الأضاحي المرتبة على المذبح، أو من خلال حفيف أوراق الأشجار في الأشجار المقدسة، أو بملاحظة حركات الأشياء الملقاة في عين ماء، أو من خلال إجراء القرعة وضرب القداح، وكذلك من خلال ملاحظة حركة الطيور وهي محلقة. (مبروك، مصدر سابق، ص 83).

2- فرانكفورت، ما قبل الفلسفة، 2003م، ص 15.

3- زكريا إبراهيم، مشكلات فلسفية، مشكلة الإنسان، 2020م، ص 189.

4- لقد ارتبط هكذا نوع من النبوءات بالحضارات المتطورة من جهة، حيث أدرك الإغريق أن الأحلام تأتي من زيوس، ومن جهة أخرى، عرفته أكثر النبوءات تطوراً؛ إذ ←

قدرًا من التقدّم الرّوحيّ يفوق ذلك الذي حقّقه نبوءات النّمط الطبعيّ، بدليل إقرار الأديان التّوحيديّة الكبرى نبوءة المنام والرؤيا.

إذ يبلغ الوعي النّهاية في مسيرة تقدّمه الرّوحيّ عند مفهوم الإله المجرد الذي ليس كمثلته شيء، إله لم يخلقه أحد؛ لأنّه علّة الخلق بأسره؛ ليكون بذلك قد بلغ حدًا من الشّمول والكلّيّة والعلوّ جعله الخالق لا المخلوق؛ بمعنى أنّه إذا كنّا في النّسق الميثولوجيّ بإزاء إنسان خلق الإله على صورته، فإننا هنا في النّسق الدّينيّ بإزاء إله هو الذي خلق الإنسان على صورته<sup>1</sup>، وإذا كان الإنسان في النّسق الميثولوجيّ قد خلقه الإله أرضيًّا ثمّ أضعده إلى السّماء، فإنّ الإله في النّسق الدّينيّ قد خلقه سماويًّا ثمّ أهبطه إلى الأرض. ولهذا، اتّخذت النّبوءة في هذا النّسق المسار الهابط (العاطفة)، واتّخذت هناك المسار الصّاعد (العقل).

#### أ. النّبوءة اليهوديّة، النّسق الدّينيّ الخاص:

تمثّل اليهوديّة، بشكل عامّ، أولى لحظات النّبوءة في النّسق الدّينيّ فقد أصبحت «المبادرة» (initiative) في الفعل النّبويّ من «الله» الذي يقوم بإبلاغ مقاصده من خلال الرّؤى والوحي السّماعيّ؛ بحيث لا يمكن اعتمادًا على أيّ وسيلة إنسانيّة إجباره على كشف خطّطه ومقاصده. ولذا، امتلأ النّبويّ إحساسًا بأنّه مُرسَلٌ من الله وهو؛ أي هذا الإحساس، واحد من أهمّ سمات النّبوءة التوراتيّة الدّينيّة (biblical)، وقد ترك أثره على طبيعة النّبوءة ذاتها، فبعد أن كان كلام العرّاف، أو المُتنبّي في النّبوءات الميثولوجيّة مجرد تفسير، أو تأويل خاصّ لإرادة الله كما يراها هو، أصبح النّبويّ ملزمًا بنقل كلام الله حرفيًّا (verbal)<sup>2</sup>، وإن كان هذا لم

← كثيرًا ما تقابلنا الصيغة التالية في الكتاب المقدّس: فقال له الله في الحلم، لا بل إنّ الإسلام نفسه قد عدّ الرؤيا جزءًا من سبعين جزء من النّبوءة، وقد كانت الرؤيا مبدأ وحي النّبويّ، فكان لا يرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح، والمدة التي كان يوحى إليه بها ستة أشهر إلى أن هبط عليه جبرائيل. (مصطفى عبد الرزاق، الدين والوحي في الإسلام، 1982م، ص 57).

1- التكوين: 27:1.

2- لم تتخلّص النّبوءة اليهوديّة تمامًا من شوائب النّسق الميثولوجيّ في هذا الموضع، فالحقّ أنّ مهمّة النّبويّ فيها هي نقل كلمة الله إلّا أنّ النّبويّ بما هو شخص له وجهة نظر خاصّة. ولذا، فإنّه ينطق بالكلمة الإلهيّة كما أدركها من خلال موقعيّته الخاصّة (his own situation).

يحفظ كما هو، فعادت النبوءات ذات البُعد الميثولوجي لتظهر في ثنايا النبوءة الوحيانية، فلم تقدر لتتخلص من شظايا النسق الميثولوجي بشكليه: الطبيعي، والذاتي خصوصاً بعد جلاء بابل، وما استتبعه من استعباد لشعب بأكمله خارج حدوده وجغرافيته<sup>1</sup>.

ذلك يعني أنه من منظور علمي بحث أن نمط التنبؤ الذاتي؛ وهو أحد أشكال النسق الميثولوجي قد وجد لنفسه مكاناً في نبوءات النسق الديني؛ ما يعني أن القول بالانقطاع التام تاريخياً وموضوعياً بين النسقين لا تحقيق له دون أن يلغي ذلك أن نبوءات النسق الديني كأبي ظاهرة ترتبط بالإنسان لم تبدأ مكتملة، فمع أن النبوءة ظاهرة قديمة في الديانة اليهودية إلا أنها لم تأخذ شكلها المتكامل إلا عند منتصف القرن الثامن قبل الميلاد<sup>2</sup>.

لكن الأهم من ذلك كله ما يثته ذلك النمط من النبوءات، حيث يتحول الواقع من النبوءة بمعناها الوجودي إلى وساطة تؤسس لحوار بين الله وبين الإنسان، والحق أن اللفظ العبري<sup>3</sup> لا ينطوي على أكثر من ذلك، وذلك يعني في ما يعنيه أن طرفي الحوار؛ أي الله والإنسان، متحاوران. وعليه، فإنه يحق للإنسان من حيث هو طرف، أن يسهم بدور في اختيار الأداة التي يتحقق عبرها الحوار. ولذا، فإن اختيار النبي لمهمته ليس فقط عملاً إلهياً بحثاً؛ وإنما له أساسه في الواقع الإنساني، وذلك ما أشارت إليه بعض النصوص من قبيل: {إذهب واسمع

1- نلاحظ ما ذكرته النصوص المقدسة التي تؤكد ممارسة العبرانيين لكثير من أنماط التنبؤ الميثولوجي في شكلها الطبيعي، كالتنجيم بالماء والزيت، والتبليغ من خلال أرواح الموتى ونبوءات الأشجار؛ وعلى الرغم من إدانة الكتاب المقدس بشدة لذلك النمط من النبوءات والممارسات الميثولوجية، وبهذا، يقول الرب: {لا يجب أن تمارس العرافة والسحر}. (اللاويون، 19: 16)؛ لأنها تقوم على العلم والصناعة، وتعتمد على قدرة المهارة الإنسانية في النفاذ إلى الإرادة الإلهية. وبذلك، تكون المبادرة في الفعل النبوي بيد الإنسان، إلا أنه قد أقر الأعلام والرؤى، وهي الشكل الذاتي للتنبؤ الميثولوجي، بوصفها أداة مشروعة يكشف الله من خلالها عن إرادته بجانب النبوءة. (مبروك، 2007: 88).

2- يحزقيال كوفمان، دين إسرائيل، 2002، ص 373.

3- nabi.

كل ما يقوله إلها لك.... ونحن سنفعله برضى تام<sup>1</sup>، وكذلك: ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾<sup>2</sup>، وكذلك: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نُنظَرُونَ﴾<sup>3</sup>.

لا يخفى أن الله عندما يختار سفيره ورسوله إلى البشر، فإنه يختار، بما له من علم، شخصًا يدرك أنه يلقي القبول من البشر، فاختيار الله ليس عبثيًا؛ بل هو متوقف على مجموعة عوامل ومبررات منطقيّة ذاتيّة وخارجيّة. لذلك، هناك من يرى أن الاختيار الإنساني لشخص النبي وقبوله يرتبط باختيار إلهي سابق له في الأزل، وفي ذلك نصوص عدّة من أنه {قبلما صورتك في البطن عرفتك، وقبلما خرجت من الرحم قدّستك، جعلتك نبيًا للشعوب}<sup>4</sup>، وكذلك كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين<sup>5</sup>.

لا شك أن ذلك الاختيار الأزلي قد يستلزم من الله أن يهب من يختاره للنبوّة مجموعة من الصفات؛ ما يجعله مقبولًا بين البشر، أو فلنقل ما يجعل تقبل البشر له ممكنًا، وذلك ما تمّ، حيث يحدثنا القرآن عن النبي موسى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِنُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾<sup>6</sup>، من هنا، يكون الاختيار الإنساني قبل الله على مستوى التاريخ، ويكون اختيار الله للنبي قبل الإنسان على مستوى الميتافيزيقيا. مهما كان، فإن النبي شخص وقع عليه الاختيار؛ بسبب من امتيازه وتفوقه، لينقل كلمة الله إلى البشر؛ لأن الله لا يمكن أن يعطي وحياً خاصاً لكل إنسان، حيث إن المعجزات المتتالية ستنتفض النظام الطبيعي. ومن ثمّ، تناقض الله مع نفسه. ولهذا، لو كان الوحي لا بُدَّ وأن يحدث بالمرّة، فإنه يحدث في مناسبات نادرة لأشخاص معيّنين يشقّ الناس بشهادتهم، أما غيرهم فلا يوجد لديهم وحي

1- التثنية، 5: 27، وقد ورد قريب ذلك في القرآن الكريم حول النبي موسى وقصة البقرة مع قومه، قال تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لِنَارِكَ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا لَن سَاءَ اللَّهُ لِمُهْتَدُونَ﴾ الآية 70، البقرة/2.

2- الآية 24، المائدة/5.

3- الآية 55، البقرة/2.

4- إرميا، 1: 5.

5- الأحسائي، عوالي اللآلي، 1983م، 4: 121.

6- الآية 39، طه/20.

مباشر؛ وإنما فقط شهادة عن الوحي<sup>1</sup>، وذلك يعني أن النبوة ليست شيئاً قائماً في الفراغ؛ بل هي انبثاق مُحدّد له أبعاده الاجتماعية والتاريخية، لذلك ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرَكَ الْفَوِيُّ الْأَمِينُ﴾<sup>2</sup>، وقد عرف عن النبي محمد ﷺ أنه الصادق الأمين.

### ب. النبوة الإسلامية، النسق الديني الأكمل:

يُمثل الإسلام القصد الغائي للوحي، والترقي الأعلى للوعي الإنساني، حيث تتحقق فيه إدراك الوحدة بين الله والإنسان، وهذا على الرغم من انفصالهما المباشر، فإذا كان الوحي قد بدأ مسيرته من انفصال الله عن الإنسان، فإنه قد أدرك أخيراً أنّ وحدتهما قائمة خلف ذلك الانفصال ذاته، وهنا يكون قد بلغ الغاية وتمام الاكتمال، وذلك ما تحقّق في نبوة النبي الأكرم التي تبدو باطنة في كلّ لحظة من لحظات تطوّرها. من هنا، نفسر كيف كان نبياً وآدم بين الماء والطين في حين أنّه آخر الأنبياء.

ظنّ بعضهم أنّ ذلك الحال يُلازم القول بأنّ النبوة نوع من التّحرّر من الذات. لذلك، يكون الإنسان باكتمال الوحي قد حقّق درجة من الوعي تؤهله لإكمال مسيرة تطوّره معتمداً على قواه الخاصّة؛ «فالنبوة قد تبلغ كمالها الأخير من إدراك الحاجة إلى إلغاء النبوة نفسها، إذا الإنسان كي يحصل على معرفته لنفسه لا بُدّ أن يترك ليعتمد في النهاية على وسائله هو»<sup>3</sup>.

ذلك تفسير خاطئ لمعطيات النبوة نفسها؛ لأنّ الاتّصال بالوحي لم يكن ولا كان لجعل الإنسان بمرحلة من الوعي؛ بحيث يعتمد بعدها على نفسه وقواه؛ وإنما النبوة تعني أنّ قوى الإنسان مهما كانت لا تستطيع أن تقف لوحدها في مسيره وتكامله، وذلك هو الفرق الدقيق بين مَنْ ذهب إلى الاتّصال التّام بين الوعي والله، وبين الانفصال.

مهما يكن من قدسيّة ونزوع لرفع التّقص من عمق الوجود الإنساني، ومهما علا جموحه نحو التّحرّر يبقى مُقيّداً بقيد الغيب والوحي؛ بل حتّى لو فرضنا البنية الفلسفيّة التي جوهرها وحقيقتها التّحوّل في الوعي الإنساني يبقى النبي

1- لسنج، تربية الجنس البشري، 2006م، 32.

2- الآية 26، القصص/28.

3- إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، 2005، 144.

بحاجة إلى العقل الفعّال؛ كي يكتنف ذاته بذاته.

لذلك، لا يمكن السماح للتقيد العلمي الذي يدرس الظاهرة النبوية على أنها نوع من الفعالية البشرية أن تخرج بالنبوة من بُعدها الألوهي الإنساني، فهي ليست ظاهرة مساندة للإنسان تنتهي صلاحيتها بمجرد وصول الإنسان إلى مرحلة النضج؛ بل هي حاجة أنطولوجية وجودية تبقى ترافق الإنسان في جميع مرافق حياته. ولذلك، فقد نصّ القرآن الكريم بالقول: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾<sup>1</sup>.

وما أسس له الإنسان في وعيه البدائي لم يكن إلا تنطعاً؛ لكشف ذلك البعد الآخر من وجوده، لا لتخطيه والاستغناء عنه بعد تحقق تمام وعيه واكتماله.

#### - العوامل والأبعاد المعرفية في النظرية الإسلامية

اعتمد الإسلام في بعده المعرفي على عاملين أساسيين، هما: العقل، والوحي؛ فاستطاع استيعاب كل الميراث الفكري اللاهوتي - البشري وتوجيهه؛ ليحقق الغاية وأنه خاتم الديانات والشرائع، فصّح الفكر النبوي وحصره وحدده، وأبان أدلته العقلية والتقليدية وأصوله وضوابطه وقواعده مما لم يُترك مجالاً لأي شبهة تاريخية، أو فكرية.

لا إشكال ولا ريب أن إدراكات الإنسان الحسّية هي مفتاح ارتباطه بالعالم الخارجي، وهو ارتباط ماديّ محدود لا يخرج عن الإطار الظاهري للحواس؛ لأنها مُقيّدة بإطار الزمان والمكان لا تخرج عنهما. لذلك، لا يمكن بها معرفة ما هو خارج هذا الإطار العام.

أما الإدراكات العقلية، فإن غايتها مفاهيم كلية خاصة؛ أي البدهيات الأولية، التي تُشكّل اللبنة العقلية النبوية لكل ما هو فكر وميثولوجيا في آن، تُوظف في معرفة المبدأ الأول وبعض المسائل الفلسفية الخاصة<sup>2</sup>.

يبقى المبدأ الأهم، وهو الذي يتعاون فيه الحسّ والعقل، وهو ما يُعبّر عنه بالإدراكات والمعارف التجريبية، والتي على الرّغم من كثرتها ووسعتها تبقى مُقيّدة بالحسّ وعناصره؛ ما يعني أن الاكتفاء بمعطياتها لا يخدم لا النبوة ولا الميثولوجيا؛ لأنّ النبوة إنما كانت ووُجِدَت لتخطي الواقع الماديّ والزمني

1- الآية 165، النساء/4.

2- البيدي، النبوة في القرآن، 2005م، ص 19.

لكشف ما هو غيبي. ولذلك، لا يُمكن تصحيح مسارها في أمور لا تمت إلى بنيتها بصلة، في حين- وتحت وطأة الحاجة- اضطرّ الإنسان إلى الإذعان للوحي الذي هو نفسه النبوة؛ وهو عملية ارتباط بوجود أعلى له قدرة مطلقة لا يحدها شيء.

ذلك مع الالتفات إلى أن النسق الديني في النبوة الإسلامية يوازي في الوعي بين النبي وبين الإله، لا لجهة الاتصال والانفصال كما مر؛ وإنما لجهة الكمال وتنزيه الإله، فجعل الإله في مصاف عليا لا يحاط بكنهها ولا بجوهرها، والمتصل بها في أعلى درجات الوعي والاتصال، وذلك ما تفسره آيات القرآن الكريم. ﴿ثُمَّ دَنَا فَدَدْنَىٰ \* فكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ \* فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ \* مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾<sup>1</sup>.

ذلك يكشف عن أعلى درجات العلوّ والرّفعة في كلا طرفي النبوة؛ أي الإله والنبي على السواء، لا بل؛ يُعيدنا إلى الفهم الأنطولوجي الأول للإنسان وطبيعة حركته في هذا الكون، فليست النبوة بُعدًا معرفيًا بحثًا؛ كي تتجلى وفق التطور الزمني المنصرم مهما طال، فإذا ما تمت واكتملت فيها عملية الوعي، عندها يفصل الإنسان بنفسه ويكمل مساره مُخطيًا حتى نفسه وذاته؛ بل هي مسألة أنطولوجية ترتبط بوجود الإنسان منذ الأزل، وضياح تلك القضية على الأجيال الأولى حتّم على الإسلام أن يعيدها ضمن صياغته الخاصة لمفهومها الأنطولوجي (الإنسان خليفة الإله وابن النبوة).

وعليه، فلا البعد المعرفي يمكن له أن يكتشف الأصالة في الإنسان دون النبوة، ولا البعد الوجودي يمكن له أن يتكامل دونها.

- البنية العقدية الخاصة في النبوة الإسلامية:

إنّ البناء العقدي الخاص للنبوة لا يكشف إلا عن مظهرها المجرد، بخلاف البناء الإنساني العام لها الذي يكشف بُعدًا عينيًا؛ إذ هي في سيرها هذا لا تجسّد إلا حوارًا بين الله والإنسان؛ بينما هي في مظهرها التجردي تكشف خطابًا إلهيًا غاب شرطه الإنساني إلا بوصفه مُتلقياً وناقلاً صرفاً<sup>2</sup>؛ أي لا يكون الإنسان مُحدّداً

1- الآيات: 8 - 11، النجم/53.

2- وهذا ما عبّرت عنه الآية القرآنية {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَابِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ}. الآيتان: 44-45، الحاقة/69. والآية في الكتاب المقدّس {فاصغ يا أيوب واستمع لي...، أنصت فأعلمك الحكمة} (أيوب 33، 33-32).

فيها إلا أداة صرفة تنقل الموحى به، وذلك انسجامًا وتماهيًا مع الطبيعة الخاصة لأيّ ثيولوجيا ترى أنّ وظيفتها الأساس هي اختزال كلّ ما هو عيانيّ مادّي في المجرد؛ أي الله، فالعالم كلّ لا بُدّ أن يُرى من خلال الله؛ ليكون الجوهر الأساس هو التّضحية بكلّ ما هو عيانيّ وصّهره في المجرد، وهنا يتكشف ويظهر الأصل النيويّ في النّبوة (المظهر المجرد) دون (العيانيّ).

ذلك التّجرد التّام في النّظرة إلى العالم تحتاج إلى وساطة معرفيّة ووجوديّة كاملة تامّة هي النّبويّ. لذلك، كان المحور الأساس في كلّ التّحرّكات الأيديولوجيّة، هو الشّخص الألوهيّ (العيانيّ المجرد)، وكان الأنبياء: موسى وعيسى ومحمّد، هم الشّاخص الألوهي ومنهم وعنهم تفرّعت بقيّة شؤون الأمة، وعبرهم كان الإنسان ينظر إلى العالم غير مستثن أيّ مسألة من مسائله.

لا أدلّ على ذلك من أنّ أيّ خلاف تمّ بعد وفاة النّبويّ؛ إنّما كان هو الشاخص نفسه؛ بمعنى تحديد ذلك الشاخص، سواء في اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام على السواء، وما ذلك إلّا؛ لأنّ ذلك الشاخص هو المفردة الوحيدة التي تربط العيانيّ المحض بالمجرد التّام، وبذلك المعنى صحّ أن يُقال: إنّ النّبوة نتيجة أزمة وجوديّة يعيشها الإنسان. ومن ثمّ، تسري إلى معرفته؛ لتصبح أزمة معرفيّة أيضًا، ولذلك قيل: «إنّ الرّب كان يُسبّب الأزمات التاريخيّة حتى يدفع بأنبيائه إلى الظهور»<sup>1</sup>.

طبيعة لتبادل كهذا بين الله وبين الإنسان أن تكون الثنائيّة بينهما في شكلها الثنائيّ وأزمتها الخاتمة هي تبعيّة كل ما هو أنثروبولوجيّ لكل ما هو ثيولوجيّ، بجميع الأبعاد والضروب والاتّجاهات، وهو ما يعكس في داخله حقيقة واحدة تتعدّد رؤاها وتسمياتها، ألا وهي الإمامة. لذلك، هنا تكون بمرآها نبوة أخرى، تعكس مدى التصاق الإنسان الإلهيّ بمسيرة الإنسان ووجوده، فلا يُعدّ الحديث عن نبوة بمعناها العقديّ المدوّن في كتب اللاهوت والكلام؛ وإنّما هي الوساطة المُتحقّقة بين الله والإنسان سواء بشخص النّبويّ، أو بشخص الإمام، وذلك ما تجلّى لاحقًا في نظريّة الإنسان الكامل العرفانيّة.

هناك من التفت إلى ذلك الأمر فاعتقد أنّ ذلك مخالفًا لنسق النّبوة الأساس، حيث قال: «لعلّ أخطر ما ترتّب على القول بالنّصّ، من الله، على شخص الإمام، أنّ الإمامة اتّخذت من النّسق الشّيعيّ مكانة طالت مقام النّبوة، إن لم

1- مبروك، مصدر سابق، ص 115.

تتجاوزه،.... وحكمها في ذلك حكم النبوة بلا فرق»<sup>1</sup>.

ذلك في الواقع لا سيّ ولا محذور أبداً، والقول نبوة وإمامة لا يعدو كونه اصطلاحاً كلامياً في مقابل جوهر الوساطة العينية بين ما هو ألوهي مجرد وبين ما هو إنساني عيني، والحقيقية هي نفسها، فدفع الإمامة كفر كما أن دفع النبوة كفر؛ لأن الجهل بهما على حد واحد؛ لأن منطلق الإمامة هو منطلق النبوة، والهدف الذي لأجله وجبت النبوة هو الهدف نفسه الذي لأجله وجبت الإمامة، واللحظة التي انبثقت بها النبوة هي اللحظة نفسها التي بها انبثقت الإمامة. إن كانت النبوة بعنوان كونها تجسيدا للتوسط بين الله وبين الإنسان قد ختمت سيرها التاريخي واكتملت خصائصها ووظائفها في الإسلام، فقد كانت الإمامة بداية لتشعب كبير جداً ظهر بعد وفاة النبي مباشرة، وتشعب بعد وفاة الإمام علي مباشرة. ومع ذلك، فإن الإمامة بوصفها ميتافيزيقيا هي أهم العناصر في نسق الوجود الشامل (الأنطولوجيا) تماماً كما النبوة.

## النتيجة

يمكن القول: إن نظريات النسق التنبؤي، في واقعها، تنحصر في أمرين؛ إما أن تكون المبادرة من الله نحو البشر (العاطفة، الله)، وإما أن تكون المبادرة من البشر نحو الله (العقل، الإنسان)، دون تغييب أي من المداليل المعرفية والنفسية والاجتماعية المتشابكة، وما الخلاف في الاشتقاق اللغوي للفظ (النبي) إلا كاشف جوهري عن تباين هاتين النظريتين، ناهيك عن أن دراسة الحقب الزمنية المختلفة منذ أقدم العصور تؤكد لنا ذلك الأمر، فلا يمكن والحال تلك الوقوف أمام الرأي المتفلسف سوى أنه استمرار لذلك المد السّاحق في الزمن، وهو الأمر الذي ظهر في فلسفات الإغريق والشرق الأدنى وفلسفات الأديان الكبرى كاليهودية والإسلام، فليس بدعاً من القول الذهاب إلى رقي النبي بعقله سلم الخيال لتلقي الوحي من العقل الفعّال. ومن ثمّ، العود به وذلك؛ إنما نسق واحد من أنساق التجاذب في النبوة بينه وبين النسق الديني البحت، وذلك يُبين الفرق الشاسع بين نصوص المتون المقدّسة ببعدها التاريخي وبين النصوص المقدّسة ببعدها التأويلي الفلسفي الذي لا يستسيغ أبداً حصر فعل النبي بأنه مُتلقٍ عن الله؛

1- مبروك، مصدر سابق، ص 132.

وإنما يصعده ليرتقي سُلّم المعقولات الوجودية عبر قوّة الخيال فيتّصل بالعقل الفعّال الذي هو المفيض المعرفي الأوّل لهذا الكون الرّحب، وذاك يعني وجوب العود لا محالة إلى التّاريخ لفهم البُعد الوجودي للمتون المُقدّسة؛ إذ لا نعدم أن يكون فهمها هو البُعد الآخر لوجودها الكتابي والشفاهي.

### المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- الكتاب المُقدّس.
- 1. إبراهيم زكريا، مشكلات فلسفية، مشكلة الإنسان، مكتبة مصر، القاهرة، 2020م.
- 2. ابن خلدون، المقدّمة، دار صادر، بيروت، 2002م.
- 3. ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة، مكتب الإعلام الإسلاميّ، قم، 1375هـ.
- 4. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 2004م.
- 5. ابن ميمون موسى، دلالة الحائرين، تصحيح حسين أّاي، مكتبة الثقافة الدينيّة، القاهرة، 1984م.
- 6. الأحسائي ابن أبي جمهور، عوالي اللآلي، مكتبة السيد المرعشي النجفي، قم المقدّسة، 1983م.
- 7. اسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسّياسة، ترجمة حسن حنفي، الهيئة المصريّة العامّة، القاهرة، 1971م.
- 8. الأشعري 2011، مقالات الإسلاميين، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار صادر، بيروت، 2011م.
- 9. الأصفهاني الراغب، مفردات القرآن الكريم، دار ذوي القربى، قم، 2003م.
- 10. إقبال محمد، تجديد الفكر الديني في الإسلام، دار الأندلس، بيروت، 2005م.
- 11. الإيجي عضد الدين عبد الرحمن، المواقف، مؤسّسة عالم الكتب، 1997م.
- 12. الآمدي سيف الدين، المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين، تحقيق عبد الأمير الأعسم، مطبعة العلوم، بغداد، 1986م.

13. الأمدي سيف الدين، غاية المرام في علم الكلام، تحقيق حسن محمود عبد اللطيف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1971م.
14. البيهقي أبو بكر، السُّنن الكبرى، محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت، 2003م.
15. الجرجاني عبد القاهر، التعريفات، مطبعة المأمون، بغداد، 1986م.
16. الجويني، الإرشاد، تحقيق محمد يوسف موسى، علي عبد المنعم عبد الحميد، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1985م.
17. حسن سليم، مصر القديمة، جامعة فؤاد الأول، القاهرة، 1952م.
18. الحلّي الحسن بن يوسف، الباب الحادي عشر، دار الأضواء، بيروت، 1997م.
19. الرازي، الفخر، المباحث المشرقية في علم الإلهيات والطبيعيّات، مكتبة الأسد، طهران، 1966م.
20. رضا محمد رشيد، الوحي المُحمّديّ، دار المعارف، القاهرة، 1988م.
21. الرومي فهد ابن عبد الرحمن، منهج المدرسة العقليّة الحديثة في التفسير، مؤسّسة الرسالة، جدّة، 1983م.
22. الزرقاني محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرن، دار الفكر، دمشق 2004م.
23. الزمخشري، أساس البلاغة مطبعة القاهرة، القاهرة، 1953م.
24. ستيس والتر، فلسفة هيجل، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار الثقافة القاهرة، 1980م.
25. سوفليكس، أوديب ملكاً، ترجمة محمد صقر خفاجة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، طبعة 1974م و 1997م.
26. السيد القمني، إسرائيل التوراة، التاريخ، التضييل، دار السّنابل، بيروت، 2014م.
27. شاتليه فرانسوا، هيجل، ترجمة جورج صدقني، دمشق، 1976م.
28. الشرقاوي محمود، الأنبياء في القرآن الكريم، دار الشّعب، القاهرة، 1982م.
29. شيشرون، علم الغيب في العالم القديم، ترجمة توفيق الطويل، دار النّهضة، القاهرة، 1946م.

30. صدر المتألهين، الشواهد الربوبية، دار العلم، قم المقدسة، 2007م.
31. صدر المتألهين، الأسفار الأربعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1980م.
32. الطريحي فخر الدين، مجمع البحرين، تحقيق دار البعثة، قم المقدسة، 2007م.
33. الطوسي نصير الدين، تجريد الاعتقاد، دار الأضواء، بيروت، 1996م.
34. طه حسين، مقدمة كتاب النبوة، المغني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2000.
35. عبد الرزاق مصطفى، الدين والوحي في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، 1982م.
36. عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، مطبعة الإنجلو المصرية، القاهرة، 1984م.
37. عبده محمد، الأعمال الكاملة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1991م.
38. فريزر جيمس، الفولكلور في العهد القديم، ترجمة نبيلة إبراهيم، دار المعارف، مصر، 1982م.
39. لسنج، تربية الجنس البشري، ترجمة حسن حنفي، دار التنوير، بيروت، 2006م.
40. المبروك علي، النبوة، دار التنوير، بيروت، 1977م.
41. المعتزلي عبد الجبار، المغني، تحقيق طه حسين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2000م.
42. نيتشه فريدريك، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، ترجمة سهيل القش، بيروت، 1981م.
43. هاشم علي، الفكر والحضارة في الجزيرة العربية، دار الحضارة الإسلامية، بيروت، 2018م.
44. هنري فرانكفورت، ما قبل الفلسفة، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003م.
45. يحزقيال كوفمان، دين إسرائيل، دار الحدائث، لندن، 2002م.
46. اليزدي محمد تقي المصباح، النبوة في القرآن، تعريب عبد المنعم

الخاقاني، انتشارات ذوي القربى، قم المقدّسة، 2005م.  
.Lewis Hapfe, 1971, Religions of the world, California .47